المجاز في قصيدة الهايكو: نظرة أولية

هناك جدل شائع في الفترة الأخيرة حول مدى جواز استعمال المجاز في قصيدة الهايكو العربية، إذ يرى البعض أن المجاز لا يمكن اللجوء إليه في الهايكو، وفقا لرؤية ضيقة لاستعمال المجاز تقوم في الغالب على أن قصر حجم قصيدة الهايكو يجعلها تستغني عن المجاز، كما تقوم على أن المجاز يباعد بين "الفطرة" أو "الطبيعة" التي ينبغي أن تكون عليها لغة الهكيدة وبين القارئ الذي يحتاج – من وجهة نظرهم – إلى أن يرى الطبيعة "القُحّ" التي لم يلمسها الإنسان والتي لم تتلوث بآثار الحضارة البشرية. في حين أن البعض الآخر يرى أن الهكيدة شعر مثل أي نوع آخر من الشعر، وإن كانت لها طبيعتها التصويرية والرؤيوية الخاصة، وبالتالي يجوز للشاعر/ الهاكد/ كاتب الهكيدة أو الهايكو أن يستعمل المجاز، فاللغة البشرية مجازية في حد ذاتها من ناحية تطور استعمالات الألفاظ على مر الزمن ودخولها في تركيبات

ومجالات لغوية جديدة ومن ناحية شيوع المجاز على ألسنة الناس في الاستعمالات اللغوية اليومية.

الفئة الأولى ترى أن المجاز اختراع بشري، وأن الهكيدة تتناول الطبيعة القح بعيدا عن التدخل البشري. ولذلك لابد أن يبتعد الهاكد عن الذاتية التي تخوّل له أن يستعمل المفردات والصور الخاصة بالطبيعة في مجالات غير مجالاتها، وخاصة فيما يتعلق بأنسنة الطبيعة وتشخيص مفرداتها: أي إسقاط أفعال البشر عليها وجعلها تحس وتتألم وتنظر وتفكّر إلخ. وهناك جانب آخر من الأنسنة ترفضه هذه الفئة من الشعراء والنقاد: أي أن تتحول عناصر الطبيعة إلى مجاز تعبيري عن طبيعة البشر، فتصير هذه العناصر مرادفة لمشاعر الإنسان وتصوراته عن نفسه وعن أحاسيسه وعن أفكاره وعن رؤيته لنفسه وللعالَم من حوله: أي أن تصير عناصر الطبيعة جزءا من تكوين الإنسان، ويستخدمها للتعبير عن أشياء ليست موجودة في الطبيعة، كأن يستخدم

الوردة الذابلة مرادفا تعبيريا يقرنه بأحلامه التي تذبل أمامه على سبيل المثال.

أما الفئة الثانية، فتعتبر الهايكو نوعا فرعيا من أنواع الشعر، وما يجوز على الشعر يجوز عليها. ومادام الشعر واللغة الأدبية بوجه عام يعتمدان على كل أنواع المجاز حسب الحاجة التعبيرية، فلا ضرر من استعمال المجاز في قصيدة الهايكو، بشرط الابتعاد عن التكلف والابتعاد عن الإفراط في استعمال المجاز، مع الأخذ بعين الاعتبار أن مفهوم البلاغة مفهوم مطاط ومتغير ولا يثبت على حال، فهو مفهوم يتغير بتغير العصور، وكل عصر له ذائقته التي تستسيغ أو تفضل جماليات لغوية معينة وتبتعد عن جماليات أخرى. كما أن العلاقة بين طرفي المجاز/ طرفي الصورة الشعرية لابد أن تكون مستساغة ومقبولة، ولذلك ابتعد الشعر بوجه عام في الآونة الأخيرة عن الاعتماد على المظهر بعيدا عن الجوهر، كما ابتعد عن الصور الشعرية التغريبية الناتجة عن هوائية الشاعر وباطنيته، ولذلك صارت معظم تقنيات ما

يُطلق عليه شعر الحداثة غير مستساغة الآن، فالقارئ يحتاج إلى صورة شعرية يمكن له أن يتصوّرها ذهنيا ووجدانيا وبالتالي يستطيع أن يربطها بتجربة حية في حياته وفي حياة الآخرين من حوله.

وأنا شخصيا أميل إلى رأي الفئة الثانية من النقاد والشعراء. فلا توجد طبيعة شعريا إلا بوجود ذات بشرية لها رؤيتها الخاصة وتتفاعل مع عناصر الطبيعة وجدانيا ورؤيويا وتحمّلها بطاقة تعبيرية بشرية ليست موجودة في الطبيعة ذاتها. كما لا يوجد شعر بدون مجاز، وإلا تحوّل الشعر ذاته إلى كلامي حرفي يخلو من الشاعرية والأدبية والفنية: أي كلام لا يحمل إلا معنى واحدا ويستعمل استعمالا حرفيا نفعيا لنقل شيء من الطبيعة: أي التعبير عن هذا العنصر أو ذاك من عناصر الطبيعة تعبيرا حرفيا لا يضيف له شيئًا، وبالتالي يفقد قيمته الإنسانية، وكأن الهكيدة تحولت إلى وصف علمي أو حرفي أو نفعي لعناصر الطبيعة بدون إضفاء قيمة مضافة عليها.